مجلة المقتطف

البستاني

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور

— الجزء الثالث —

نقلها الى العربية كامل محمود حبيب

البستاني

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٥٧ —

يا دنياي ، لقد قطفتُ زهرتك !
ثم ضممتها الى قلبي فوخزني شوكتها
وحينما انهزم النهار ، وانسدل الدجى ، ألفيتُ الزهرة قد ذوت ، غير أن الألم ما انفك يخزني

* * *

يا دنياي ، إن زهرات أُخر ستتفتح بالعبير والسرياء
ولكنْ عمراً كنت أقطف فيه الزهر قد ولّى ، وفي غسق الليل فقدتُ زهرتي
غير أن الألم وحده ما انفك يخزني

— ٥٨ —

ذات صباح ، في البستان المزدهر ، أقبلت فتاة عمياء تقدّم إليّ عدداً من الأزهار لعبتُ في ورقة من أوراق اللوتس
فأحطت يدي وأنهلت عيناي
ثم قبلتها وأنا أحدثها : أنت عمياء مثل هذه الزهور
« وأنت نفسك لا تدركين جمال هديتك »

— ٥٩ —

أيتها المرأة ، لست من صوغ الخالق فحسب ، بل أنت من فن الرجال أيضاً ، فهم أبداً ينسجون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ، والفنانون يبدعون بدعاً من حلكتك فنّاً من الخلود القشيب
والبحار تلقي درّها ، والمناجم تثر عسجدها ، والبساتين تفتح — في الصيف —

عن أزهارها ، لتكون لك حلية وزينة وبهجة
إن رغبات القلوب تتفح شبابك بالبهاء
فأنت ... نصف امرأة ، ونصف خيال

— ٦٠ —

وسط ضوضاء الحياة وحولها تقفين أنت ، أيتها الخيلة ، وحيدة على الثغر ، في صمت وهدوء ، كأنك قد نُحتِتِ على صخرة
والدهر منكب عند قدميك في ذله يهيم !
« تحدثي ، تحدثي إليَّ » ، يا من أحب ، تحدثي إليَّ يا عروس ! »
غير أن كلماتك كانت قد أغلقت في صخرة ، أيتها الخيلة القاسية

— ٦١ —

إن الهدوء ، يا قلبي ، يذر السر ينقضي في بهجة
وهو لا يجعل النهاية موتاً بل كمالاً
وهو يدع الهوى يذوب في الذكرى ، والألم يفنى في الأغاني
ويذر الرحلة عبر السماء تنتهي في طيات جناحين يدفان على وكر
ويجعل القبلة الأخيرة من يديك لطيفة كزهرة النيل
قفي قليلاً ، أيتها النهاية الجميلة ، وتحدثي آخر أحاديثك في هدوء
إني أتحنى أمامك ثم أمسك بمصباحي لأنير لك الطريق

— ٦٢ —

في طريق الخيال الخالك ذهبتُ أفتش عن هوى لي كان في خير حياة

* * *

لقد كانت دارها على طرف الشارع الخالي
في نسمات الليل جثم طاووسها الدلال على الباب وتذرى بدموعه ،
وأروى حمامها حائماً في كمين

* * *

لقد وضعت هي مصباحها إلى جانب الباب ووقفت بزاني
ثم رفعت إليَّ عينيها النجلاوين وقالت في هدوء « أنت في خير ، يا حبي »

وجهدت أن أتلمس جواباً فطلبني العيّ

* * *

ثم فكرت وتكرت، فما استطعت أن أجد في خاطري شيئاً حتى أسماء ما
فزفرت البرات في محجريها ، ثم مدت الي يمناها فتناولتها ووقفت في صمت

* * *

لقد اضطرب مصباحي في لمهات الليل ثم خبا

— ٦٣ —

أيها النازح ، أحقاً عليك أن تبرح ؟
إن الليل ساكن ، والظلماء تنشر أستارها على الغابة
والمصابيح في طنني تألق ، والزهور لضرة ، والأعين الشابة ما تزال في يقظة
أفآن لك أن تسير ؟
أيها النازح ، أحقاً عليك أن تبرح ؟

* * *

إنا لم نقيد قدميك بأذرعنا المتوسلة
إن الأبواب أمامك مفتوحة ، وحصانك لدى الباب مُسرج
وإذا كان لنا أن نسد عليك الطريق فذلك بأغانينا فحسب
وإذا كان لنا أن نردك الينا فذلك بنظراتنا فحسب
أيها النازح ، إننا لا نجد القوة على أن نمسكك ، وما لنا من سلاح سوى العبرات

* * *

ما هذا اللهب الذي يقصر في عينيك ثم لا ينطفىء ؟
ما هذه الحمى التي تتدفق في دمك ؟
أي نداء في ضمير الليل يلح عليك ؟
أي رؤية مروعة استطلعت من خلال النجوم ، فاضطربت رسالتها السرية المختومة
التي قلبك من خلال الليل ... أنسربت في صمت وشذوذ

* * *

اذا كنت لا تبالي بالقيا حبيبة أيها القلب الفضي بل تهفو الى الهدوء ،
فسنطفىء المصباح ونحطم القيثار
ثم نجلس في هدوء الظلام بين حفيف أوراق الشجر ، على حين يلقي القمر
شعاعه الشاحب على نافذتك

هذا النارح . ماذا عسى أن تكون روح الأرق التي نستنشق من صبير الليل ؟

— ٦٤ —

لقد نضيت يومي على ثرى الطريق المضطرم
والآن في برد الليل ، وقفت أطرق باب الخامة : فألفيتها خاوية خربة
إن شجرة (الأشاث) المقصفة تمد جذورها النهمة خلال درجات الحائط

* * *

لقد آن لعابري السبيل أن يتزاوروا هنا ليضعوا أقدامهم المكدودة
إنهم ينشرون حصيرهم في الفناء عند شروق القمر الشاحب ثم يجلسون يتجاذبون حديث عن البلاد النائية

وفي الصباح ، تبعث فيهم الأطيار روح المرح ، فيهبون في نشوة ، على حين تحني لهم الزهور الحلية رءوسها من جانب الطريق

غير أني لم أجد ضوء مصباح ينتظرني حين أنبتُ

بل تراءى لي سناج مصابيح ظلت تشتعل بالي كثيرة ... تراءى لي يرمقني من خلال الحائط كأنهُ عيون عمياء

والفراش يضطرب بين الشجيرات مزاء البركة الجافة ، وأغصان الخيزران تمد ظلالها على الطريق المشوش

فأنا الضيف الذي لا يجد القرى وقد مال ميزان النهار
وأمامي الليل طويل ، وأنا متعب

— ٦٥ —

أفيكون هذا تدابيرك أيضاً ؟
لقد أنبتُ الشدقة ، والقنوب يضمني إليه ... ةُ ذراعا حب رقيق
فهل تناديني ؟

* * *

لقد أوقفتُ عليك — أيتها حسناء القافية — نهاري ، فهل تريدين أن تسلبيني من ليلي أيضاً ؟
في مكان ما ، يؤوي كل شيء الى النهاية ، وتسكن وحشة الظلماء هي لي أنا

فهل يخترقها صوتك اليّ يصفني ؟

* * *

أفلم يعزف الليل لحن النوم لدى بابك ؟
أفلم تخفق النجوم الصامتة في السماء من فوق برجك الجافي ؟
أفلم تهو الازهار على ثرى بستانك بين يدي الموت الرقيق

* * *

أختماً أن تناديني ، أيتها القلقة ؟
إذن دعي أعباءً آذاها الهوى تتشوّف عبثاً ثم تذرف العبرات
دعي السراج يحترق في البيت المنزل
دعي الزورق يحمل الماء المكدودين إلى دورهم
إني أذر أحلامي وراء ظهري ثم أنطلق لأبي نداءك

— ٦٦ —

هذا الأفق المُلتاث كان يفتش عن حجر الفلاسفة ، وهو أشعث أغبر ثم مال الى الظل وقد ضمّ شفتيه متلما أغلق باب قلبه ، وعيناه تأججان كأنهما حباحب [1] يبحث عن رفيقه

* * *

إن أمامه المحيط اللانهائي يزمجر
وهذه الأمواج المضطربة تتحدث أبداً عن الكنوز الخفية ، وتسخر من الجاهل الذي لا يفقه حديثها
لعله فقد الأمل ، غير أنهُ ، سهداً لأن التعب أصبح دأبه . . .
متلما يفعل البحر حين يرفع رأسه الى السماء ليبلغ المستحيل
أو متلما تفعل النجوم حين تنطلق في أفلاكها لتنتهي إلى غاية لا تدرك
وبرغم هذا فالأفق الملتاث ما يزال أشعث أغبر يفتش عن حجر الفلاسفة

* * *

وذات يوم أقبل صبي ريفي يسأله « خبّرني ، أن وجدت فلادتك الذهبية ؟

---

(١) الحباحب ويسمى القدوب : حشرة تشع الليل ضوءاً ، وإنما تصدر منه ذكور الحشرة التي يرمي الى قدر من الضوء يدخل في تركيب جسمها . وحالة منه تبعث ضوءاً يماثل ضوء شمعة واحدة

فزع الملتاث . . . هذه القلادة الذهبية كانت من حديد ، لم يكن هذا حقاً ولكنهُ هو لا يستطيع أن يثبت متى استحالت إلى ذهب

فراح يضرب جبهتهُ في عنف . . . أين ، أوه ، أين نال هو فوزاً ما مجس في ضميره؟

لقد أصبح من طبعه ان يلتقط الحصباء ويمس بها القلادة ثم يلقي بها دون أن يرى أثر اللمسات ، وهكذا وجد الملتاث الحجر ثم فقده

لقد كانت الشمس تتحدر الى الغروب فاصطبغت السماء باللون الذهبي

فعاد الملتاث يفتش ثانية عن الكنز المفقود ، ولكنه كان قد مسَّ الثوب فانحطم جسمه ولصق قلبه بالثرى كأنه شجرة اجتثت من فوق الأرض

— ٦٧ —

ولو أن الليل يقبل في خطى وئيدة يوحي الى الأغاني ان تتخافت ،

ولو أن رفاقك قد فزعوا الى مضاجعهم وأنت تحس التعب ،

ولو أن الخوف يفرغ في الظلماء ، ووجه السماء مشقب ،

لكنك أنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

ليست هذه عثمة أوراق شجر انقابة ، بل هي عباب البحر وكأنهُ احية السوداء

ليست هذه رقصة أزهار ياسمين ، بل هي وعثات الزبد

آه ، أين الشاطىء السندسي المشرق ، أين وكرك ؟

أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

إن الليل الموحش قد ران على الطريق البلق ، والفجر وسنان خلف الهضاب المظلمة

والنجوم تحلك أنفاسها وتحصي الساعات ، والقمر الطاعن يسبح عبر الليل العميق

وأنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ، ولا تسدل جناحيك

* * *

لا أمل عندك ، ولا خوف

لا كلة ، ولا همسة ، ولا صيحة

لا دار لك ، ولا فراش ترتاحه

ليس لك غير جناحين وإلا السماء الندية

يا أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

— ٦٨ —

يا صاحبي ، ليس على الحياة مَنْ يجد أو ما يعسر . احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

ليست حياتنا وحدها حملاً قديماً ، وليس سبيلنا وحده سفراً بعيداً
وليس لشاعر واحد أن يترنم بأغنية خالدة
إن الزهرة لتذوى وتموت ، ولكن الذي يتحلى بها لا يأسى عليها طويلاً
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

لا بدَّ من سكتة تنشد الموسيقا — من بعدها — لحن الكمال
فالحياة تدلف صوب الغروب لتغمر في الظلال الذهبية
والحب لا بد أن يرتد من ملهبه ليرشف كاسات الحزن ويلغ أسباب المرات
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إنا لندفع لتقطف زهراتنا خشية أن تسلبها الرياح العاصفة
وإنه ليفت الحياة في عروقنا والتأنق في نظراتنا أن نختلس قبلات كانت تخطئنا إذ أبطأنا
إن حياتنا تجذب القلوب ، وإن في رغباتنا الحدة ، لأن الزمان يدق ناقوس الفراق
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

ليس في العمر سعة لتمسك بالشيء فتستحقه فتقذف به في الزحام
والساعات تمر سراعاً تلف الأحداث في أذيالها
إن حياتنا القصيرة لا تلد سوى آية من الحب قليلة
ولو أنها كانت أيام عمل وجهد لتقدَّم بها الزمن
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إن في الحنان حلاوة لأنه يراوض حياتنا على رمات الندم الزائل
والمعرفة عابة لأننا لا نجد في الأحن نسخة لأمامها

كل شيء قد أنجز وتم في السماء الخالدة
ولكن زهرات الخيال الأرضي يفتحها الموت بالنضارة اللانهائية
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

— ٦٩ —

إني أصيد الظبي الذهبي
قد تبسم ، يا صديقي ، غير أني أراه في إثر المنظر الذي يخلبني
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأصيد الظبي الذهبي
إنك تأتي إلى السوق لتشتري وترجع إلى دارك حاملاً حاجاتك ، ولكن سحر الريح الأفاقة قد لمسني ولست أدري متى ولا أين
لقد غفلتُ من نوازع قلبي ، فكل ما يشغلني قد خلفته ورائي
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأصيد الظبي الذهبي

— ٧٠ —

إني أذكر يوماً من أيام طفولتي حين كنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير
لقد كان يوماً طرباً من أيام بوبيه وكنتُ وحدي سعيداً بألعابي
وكنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير

* * *

وعلى حين بغتة انعقدت السحب ، وعصفت ريح عاتية ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر
ثم تدفقت سيول الماء الكدر تجرف الغدير والمرقى زورقي
وفي أسى ، طاف بخاطري أن العاصفة لا همّ لها إلا أن تحطم سعادتي وأن تثأر مني في غير
وعاد يوم بوبيه البوس ، فاظلمت حواطري بين الأعاصير الحياة التي فقدتُ

وأخذت أنوم حظي على أن خدعني ، وعلى حين فجأة ذكرت زورقي الورقي الذي غرق في الغدير

— ٧١ —

لم ينصرم النهار بعد ، ولم ينقضِ اللعب . . . اللعب الذي على شاطىء النهر

لقد خشيت أن يكون يومي مسرفاً لم يدع لي فلساً

ولكن لا ، لا ياصاحبي ، إن شيئاً ما يزال معي ، وإن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

الآن إنقضَّ البُـزاة

لقد جمعت الضرائب من كل الطرقين ، والآن لي أن أرجع إلى داري

ولكن ، أيها البواب ، أتطلب جُعْلك ؟

لا تَرْعَ ، فإنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

إن سكنة الرباع تنذر بالعاصفة ، وإن السحب المتكهرة في الغرب لا تنشر بخير

وإنه ساج ينتظر هبة الريح

أما أنا فأشد لأعير النهر قبل أن يشملني الظلام

ياصاحب المعبر ، لعلك تريد أن تطلب أجرك !

نعم ، ياصاحبي ، فإنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

وعلى جانب الطريق ، في ظلال الشجرة ، جلس الشحاذ . وا أسفاه ، إنه يحدق في وجهي بعيون مملوءة بالضراعة

ماذا ، في رأيه ، عني أن كنت في يومي

نعم ، ياصاحبي ، فإنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

قد حان وقت الليل . وخلا الطريق ، وياصاحب يدأب بين أوراق الشجر

فيم عساك تكون يامن تتفحصني في خطى وئيدة خائفة ؟

آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تنزع مني كل ما ملكت . لن أطيعك في رغبتك فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حقي لم يسلبني من كل شيء

* * *

وعند نصف الليل بلغتُ داري يدين فارغتين
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت ، وفي عينيك الرغبة
ثم طرت الى صدري في شغف ، طيران الطائر الفزع
آي ، آي ، يا إلهي ، إن شيئاً كثيراً ما يزال معي ، فحظي لم يسلبني من كل شيء

— ٧٢ —

لقد دأبت على العمل الشاق أياماً لأشيد معبداً . . . معبداً لا باب له ولا نوافذ ، وحوائطه العريضة من الحجر الصلد

لقد نسيت ما عداه ، وأعرضت عن العالم ، ثم أخذت أحدق ، وأنا غارق في تأملاتي ، في الصورة التي علقتها على المذبح

إن الظلام الدامس يشمله دائماً ، غير أن مصابيح ذات الزيت العطري تنير جنباته

ودخان البخور المتكاثف يضم قلبي في ثنايه

وفي نهاية الأرق ، رحت أنقش على الحيطان رسوماً خلابة في خطوط غريبة متشابكة ، أفراساً ذات أجنحة ، وزهوراً لها وجه إنسان ، ونساء بأرجل ثعابين

ليس في المعبد فرجة تنفذ من خلالها نسائم الطير ، ولا حفيف الأشجار ، ولا ضجة القرية الصاخبة

غير أن صوتاً واحداً كان يتردد في رحابه الصامتة ، هو صوت نبرقي التي أنشرها إن في عقلي النشاط والهدوء كما يهب النسيم ، ومشاعري يغشاها الدمار

فلست أدري كيف انقضى الزمن منذ كانت نافذة تصمع المعبد . ومنذ كان الأمر يحز قلبي

* * *

إن المصباح يتراءى شاحباً خجلاً ، وإن ضوءه ليفرش على الحوائط نظرة كئيبة سلسلة من الخيالات . . . تنصر في الضوء نضرات ورقة كما تريد أن تواري نفسها

وكنت أنا أحدّق في الصورة على الذبح ، تخيل إليّ أنها تبسم وتتحرك اثر لمسة إنسية . بن الليل الذي سَجَنْتُ قد نشر جناحيه ثم توارى

— ٧٣ —

يا أمي الأرض ، ليس انوء اللانهائي لك أنت أيتها الشقاء الصبور
بنك تكدين لتدمي مخمصة تصيب صيتك ، ولكن الغذاء قليل
وهدية الهذة التي تحفظين لنا ليس فيها الكمال
والنصب التي تصنعين لأبنائك هشة
إنك لا تستطيعين أن تشبعي نهم آمالنا ، أفأهجرك لهذا ؟
إن ابتساماتك حلوة في ناظريّ رغم أن آثار الألم تضطرب في نواحيها
وحبك عزيز على قلبي رغم أنهُ ناقص
من صبرك أسبغت علينا الحياة وليس الخلود،لهذا أرى عينيك،أبداً،في يقظة
منذ ترون وترون وأنت تهيئين الأصباغ والأغاني ،وللآن لم تشبعي سماءك
بن وساوسها الحزينة
وهناك ، حول خلقك الجميل سحب من العبرات
سأسكب نفسي في قلبك الصامت ، وأفرغ حبي في حواك
سأعيدك بالعمل
فقد رأيت وجهك النضر — يا أمي الأرض — فأحببت ثراك الكئيب

— ٧٤ —

على مسرح الدنيا جلست الفتاة الصغيرة وشعاع الشمس ونجم الليل جميعاً
على بساط واحد
وهكذا اتخذت أغانيّ مكانها في قلب الارض بإزاء موسيقا السحب والغابات
ولكنك أنت أيها الفتى،بن زوالك لا تجد مكانها في سلطان الشمس الذهبي
المرح ، ولا في نور القمر الرقيق
بن رحمة السماء التي تضم الجميع لا تقربك
وحين يقبل الموت يعريها الشحوب وتذري وتهوي الى التراب

— ٧٥ —

في منتصف الليل قال الراهب المتنظر :

« لقد آن لي أن أبدد دياجي لأخرج الى ربي . آه ، من ذا الذي أمسك بي طيلة هذه المدة هنا ..... في هذا الضلال ؟ »

فهمس الله « أنا » غير أنهُ كان في أذني الرجل وقرٌ

وفي ناحية من الفراش كانت تنام زوجه في هدوء ، وقد ضمت طفلها النائم الى صدرها

قال الرجل « من عسى ان تكون يا من تقفلني طيلة هذه المدة ؟ »

فيقول الصوت ثانيةً « إنهُ هو الله » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

وصاح الطفل من خلال أحلامه وقد لصق بأمه

فأمرَ الله « قف أيها الغبي ، لا تزعج دارك » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

فيعيد الله في تذمر « لماذا يريد عبدي أن يطلق يقتش عني ، فيأتي عني ؟ »

— ٧٦ —

لقد كانت السوق في جوار المعبد . وكان المطر ينهلّ منذ الصباح الباكر والآن قد انقضى النهار

كل هذا البشر الذي يشيع في وجوه الناس يبدو واهياً إذا قيس بابتسامة تأتي على شفتي ضفة احتازت بيس واحد — حفارة من صعب النخيل

بصوت صفير هذه الصفرة الحاد الفرح يغطي على كل هذه الضحكات وهذا الصخب

... أين فيض من الناس يزدحمون ، على حين كان الطريق مهجوراً . والنور مرعباً . والحقول تحت سيل من المطر ما يكف

وفي خلاء هذا العدم يعوق كل ما تقابله هذه الزمر ، فهولا يجد شيئاً واحداً يتحداني عكازه

وصباح المشوقتان ترمقان تلك التي هي ساكنة في هذا الدير

— ٧٧ —

لقد تزوج الخامل وزوجه من الأقطار القريبة ؛ وهما الآن يجمعان في جيد بيشان الطوب للقمين

وابنتهما الصغيرة تختلف الى الموردة حيث لا تنتهي من صفق الصدور وجلاء الأوعية

وأخوها الأصغر يسير على أثرها ؛ ورأسه حليق وأطرافه السمر عارية وملوثة بالطين ... وهو لدى الشاطىء ينتظر أمرها في صبر

ثم هي ترجع الى الدار وعلى رأسها جرتها المزعة منتصبة في اتزان ؛ وقدرها النحاسي اللامع في يسراها، وفي يمناها يد أخيها الأصغر... إنها خادم امها الصغيرة خدمها التي تحمل أعباء الدار

وفي ذات يوم ألفيت هذا الصبي العاري جالساً وقد مدّ رجليه

وأخته على الماء تحك وعاء الشرب ببقية من تراب، وهي تديره بين يديها وتديره وعلى خطوات منها حمل ناعم الصوف يرعى على طول الشاطىء

وراح الحمل يدنو من الطفل رويداً رويداً ، وعلى حين فجأة ماماً ففزع الطفل وصرخ

فنبذت الأخت وعاءها والتفتت صوب أخيها

ثم أمسكت بالطفل في يد وبالحمل في يد ، وجمعت كلاً منهما ببعض عطفها ، ومن قلب واحد انبعث حنان الأمومة الحيوانية والانسانية معاً

— ٧٨ —

لقد كان في مايو ، والظهر المكفهر يتمطى كأنه لا نهائي ، والأرض الجافة تنبح حُرق العطش من أثر الحر

في حين سمعت من جانب النهر صوتاً ينادي « تعالي يا عزيزتي »

فأغلقت كتابي وفتحت الشباك أتشوف

فرأيت جاموسة ضخمة ملطخة بالطين تقف الى جانب النهر في هدوء ، وفي عينيها الصبر ، وعلى خطوات منها فتى ينادي بنداءه لذة ما غمر هو فيه قديم

فجلست في طرب وأنا أستشعر لمسات اللذة في نفسي

— ٧٩ —

طالما جست خلال أرض تكمن فيها حدود المعرفة التي تفصل بين الانسان والحيوان . . . الحيوان الذي لا يعرف قيمة لغة الكلام

في أي جنة أزلية في فجر الخليقة ، خُطَّ الطريق السهل الذي عليه تزاورت قلوبهما

أن آثار خطواتهما الثابتة لن تمحي وإن طمست الأيام على وشائج كانت بينهما

ولكن على حين بغتة ، وعلى نغم الموسيقا الالهية ، تهب الذكرى الغامضة فيحدق الحيوان في وجه الانسان في إخاء رفيق ، وينظر الانسان في عيني الحيوان في عطف جميل

فيتراءى كأن الصديقين يتلاقيان متفقين ، فلا يستطيع واحد أن يتعرف على صاحبه من خلال نقابه

— ٨٠ —

أيتها الحسناء ، إن نظراتك تستطيع أن تستخرج كنز الأغاني من قيثارات الشعراء

ولكنك لا تعيرين ثناءهم أدنى عناية ، ولهذا فقد جئت أغلقك

إنك تستطيعين أن تدرسي أعظم كيمياء في العالم

غير أن أحباءك الذين لا تعيبهم نظرة هم الذين اخترت لتعبدي ، ولهذا فأنا أعبدك

إن جمالك يراعيك بريد في روعة تلونها الملوكة

ولكنك تفضلين بهما العبارة وتقدرين مهما مدارك الأرضية ، ولهذا فالأسى بالأولى

— ٨١ —

أيتها الحسناء ، يا فتاتي ، لماذا تصدر في أذني صفيراً حاداً

في المساء ، حين تتداعى الزهور ، وتؤوب الفتيان الى حظائرها ، تسترق أنت الخطى الى حانتي وتتحدث حديثاً لا أفهمه

أهكذا — أيها الفناء ، يا فتاتي — تريد ان تتودد إليّ وتجذبني اليك بجرعة من حديثك الخدر وقبلاتك البيضة

* * *

أفلا يكون لعرسنا حفل بهيج ؟
أفلا تتوج عقائص شعرك الأسحر باكليل من الزهر ؟
أفلا يتقدمك من يحمل رايتك ، ومن يزيح ظلمات الليل بمشاعلك الحمراء .
يأيها الفناء ، يا فتاتي ؟
تعال وهات قبعات أصدقائك ، تعال في الليلة الساهرة
والبسني الرداء القرمزي ، ثم امسك يدي واجذبني اليك
ولتكن عربتك لدى باب على أهبة الرحيل ، وأفراسك تصهل في غير صبر
ثم ارفع قناعي . أيها الفناء ، يا فتاتي . وحدق في وجهي في كبرياء

— ٨٢ —

إن عليّ أنا وعروسي أن نلعب الليلة لعبة الموت
إن هذه الأمسية حالكة ، والسحب تتقاذفها الأعاصير ، والأمواج تزمجر
لقد بدّت أنا وعرسي وطاء أحلامنا ، وفتحنا الباب على مصراعيه ، ثم خرجنا
وجلسنا على الأرجوحة ، والرياح الزفزافة تدفعنا من وراء في عنف
لقد هبت عرسي في فزع ومرح ، ثم لصقت بصدري وهي ترتعد
وطالما حبوتها بعنايتي
لقد كنت أهيىء لها فراشاً من الأزهار ، وأغلق الباب خيفة أن يفزع الضوء الثلاج عينيها
ثم أقبل شفتيها في رفق وأهمس في أذنيها في رقة حتى يغلبها النعاس
فتتمتم في حجب لا نهائية من اللذة الغامضة
لا تمس لساني ، ولا تستطيع أغانيّ أن توقظها
والليلة بلغنا صوت العاصفة من الناحية الموحشة
فازددت عروسي وهبت تمسك يدي في فزع
أن الرياح تعبث بشعرها ، وان ثغابها يضطرب ، وان حلاها على صدرها توسوس

لقد ردتها دفعة الموت الى الحياة
وعن الآن ، أنا وعروسي ، وجهاً الى وجه ، وقلباً الى قلب

— ٨٣ —

إنما كانت تسكن في مطمئن الوادي على حافة غيط الذرة ، على خطوات من الغدير الذي يفيض على السواقي الضاحكة ، تحت ظلال الأشجار القديمة . إن النساء يأتين بملأن جرارهن ، والسمر يجلسون يتناسون أسباب الراحة والحديث وهي تعمل كل يوم وتحلم على ثغر حباب ماء الغدير

وفي ذات مساء أقبل عابر سبيل يُشمم من لدن القمة التي تلفها السحب ، وقد صفر شعراً كأنه الثعابين الوسنى ، فسألتاه في دهشة « من عسى ان تكون ؟ » فلم يرد جواباً ، غير أنه جلس الى جانب الغدير الزئار ، وراح يرمق دارها في صمت ، فتقصفت قلوبنا من رجفة الخوف ، ورجعنا الى دورنا حين أقبل الظلام

وفي الصباح التالي ، اقبلن النساء الى الغدير عند شجرات (الدودار) بملأن جرارهن . فألفين بابها مفتوحاً ، وقد صمت صوتها . فأين — يا ترى — اختفى وجهها البسام ؟ إن جرتها ملقاة على الثرى فارغة وقد احترق مصباحها . أي حدس سيتفيهن يقول الى أين ذهبت قبل ان يلمع الصبح ... والى أين انطلق عابر السبيل ؟

وفي شهر مايو أخذت الشمس تلفحنا بأوارها فأذابت الجليد ، وجلسنا نحن الى جانب الغدير نبكي . ونحيب « أتبكون في الأرض التي فزعت اليها غديرة ، ومن أين تملأ جرتها في هذه الأيام الظمأى ؟ » ثم انطلقنا نتساءل « أفهناك أرض وراء هذه التلال التي تضمنا ؟ »

كانت ليلة صافية ، والنسيم يهب من لدن الجنوب ، وأنا جالس في حجرتها الخالية حيث تصدح الصراصير ، وعلى حين غفلة رأيت التلال تنحسر أمام ناظري كأنها أستار ترفع ، آه ، انها هي تدنو . كيف أنت يا طفلتي ؟ أأنت سعيدة ؟ أين وجدت المأوى تحت هذه السماء المقفرة ؟ و ... وا أسفا ... لقد توارى الغدير الذي يفيض غُلَّتك ؟ »

فقالت دار السماء هي السماء غير أنها انفلتت من حدود الملاك ... وأن القدير هو القدير يشتد صوب النهر ... وإن الأرض هي الأرض تنبسط في سعة؟ فأوهمت أنا وكل شيء هنا إلا أنا؟ وانغمست في الخمر ثم قلت: إنك أنت في ملئي؟ واستيقظت من نومي فسمعت خرير القدير وحفيف شجرات (الدودار) ... تحتها تخرق صمت الليل

— ٨٤ —

على حفر الأرز الخضر والصفر انتشرت خلال سحب الخريف بطاردها شعاع الشمس المتطلق

لقد نسيت النحل أن ترشف رحيقها حين تذكرها نشوة الضوء؛ وانطلقت في فيلق نحوم ونحن

والبط في جزائر النهر يبطئ في مرح وإلى غير غاية

يا صاحبي: لا تدع واحداً ينطلق إلى داره ... يلتفت إلى تحية هذا الصباح

دعنا نشرب سماء الصافية قبل العاصفة؛ ولتملأ الفضاء بالغد

إن الضحكات تسبح في الفضاء كزبد النهر

يا رفيقي، لتشدد الصباح بالأغاني الثانية

— ٨٥ —

من عسى أن تكون يا قارئي الذي تقرأ أنت في بعد مائة سنة؟

أنا لا أستطيع أن أرسل إليك زهرة واحدة من رياض الربيع، ولا خيطاً ذهبياً من خيوط السحب البعيدة

فافتح بابك وسرّح الطرف

واجمع من حدائق الدهر شذرات ذكريات ... ربيعت منذ مائة سنة

فلعلك ... من ثنايا نشوات قلبك، تستشعر عبير هذه الزهرة التي أرسلت عليها في فجر يوم من أيام الربيع؛ وتسمع صوتها الشجي ... منذ مائة سنة

الشعر لحمد ... كامل حسين